المؤرخ الروسي بوكروفسكي (1868 ـ 1932 م)

عبد الجبار بن علية

ان الحديث عن المؤرخ الروسي بوكروفسكي (الماركسي)، لا يتم الا بعد الحديث باختصار عن المدارس التاريخية قبله. لقد لوحظ ان قفزة فكرية حقيقية ظهرت في روسيا خلال النصف الثاني من القرن (19 م). وبرز عهد تميز بتطور انتاج أدبي تاريخي رسمي رائع [1]. هذا الانتاج التاريخي كان نتيجة الاصلاحات التي قام

(1) هذا النتاج التاريخي تمثل خصوصا في أعمال «سولوفييف Soloviev » الذي عاش ما بين 1820 ـ 1879، و«كوستوماروف N. Kostomarov » 1817 ـ 1885 و«باستوجيف ريومين Rioumine C. Bestoujev » 1829 ـ 1897. غير ان سولوفييف كان أكثر انتاجا وأكثر تأثيرا بالمقارنة مع غيره من المؤرخين الروسيين الآخرين. ومن أهم أعماله ـ أي سولوفييف ـ «تاريخ روسيا» الذي ظهر ما بين سنوات 1851 ـ 1879، في تسعة وعشرين مجلدا. واذا كان هذا الكتاب الضخم يعد الى اليوم أكثر اكتمالا وشمولية لتاريخ روسيا، فان أحداثه توقفت عند سنة 1774. كان ما تميز به هذا الكتاب اعطاؤه اهتماما كبيرا للأمور الاقتصادية، وتأييده أفكار الروسيين ذوي الثقافة الغربية (Occidentalistes) حول اصلاحات بطرس الكبير.

وقد حاول كوستوماروف أيضا خلال النصف الثاني من القرن 19 م كتابة تاريخ عام لروسيا صاغه في سلسلة من التراجم. غير انه اهتم خصوصا بالتاريخ الاقليمي أو المحلي، مثل «تاريخ أوكرانيا»، وكذلك فعل باستوجيف ـ ريومين، الذي نشر ملخصا لتاريخ روسيا، ووضعه في مجلدين، غطى الفترة من القديم الى القرن 16 م، وتكمن أهمية هذا الكتاب الرئيسية في أنه تضمن لمحة حول مفهوم التأريخ عند الروسيين، ولم يسبقه في هذا الصدد سوى الاكاديمي «فلاديمير ايكونيكوف V. Ikkonikov 1841 ـ 1916، الذي وضع مؤلفين بعنوان «دراسة في مفهوم التأريخ عند الروسيين في أربعة مجلدات. أنظر :

J.J. Gapanovitch. Introduction a l'histoire de la Russie, historiographie Russe (hors de la Russie) payot, Paris 1946, pp. 17—18

— voir aussi P. Kovalovsky, Histoire de la Russie et de l'URSS par 1970.

بها الامبراطور «الكسندر الثاني» (1855 ـ 1881) في ذلك الوقت. من بينها فتح المجال أمام التعليم والفكر والثقافة، وكان المؤرخون الروسيون من بين من تأثر بهذه الحركة الاصلاحية. فقد أظهر هؤلاء المؤرخون اهتماما كبيرا بماضي روسيا، وأصبحوا يتقيدون بدراسة الظواهر التاريخية لبلادهم بشكل أكثر عمقا.

ومعلوم أنه منذ القرن 18، انقسم المؤرخون الروسيون الى مدرستين متعارضتين بالنسبة لاصلاحات «بطرس الكبير»[1]. وهذه القضية ما تزال الى وقتنا الموضوع الرئيسي لعلم التاريخ عند الروسيين. ذلك أنه بدراسة هذا العلم غالبا ما يصطدم المرء بتيارين[2] متحيزين : من جهة هناك المتغربون (ذوي الثقافة الغربية)، الذين يؤكدون بأن كل الأمور التي تشبه ما في أوروبا الغربية، فهي من تلقاء نفسها سلبية. وبالتالي يجب استبعاد نمط الحياة الذي كان موجودا قبل عهد بطرس الكبير، وفي الوقت نفسه حاول هؤلاء التأكيد على ولائهم لآل «بطرسبورغ» (Petersbourg)[3] والأخذ بمبادئ الاستراكية الأوروبية[4] وغيرها من أنماط المعيشة الأخرى. ومن جهة أخرى نجد نفس النظرة ـ الضيقة ـ لدى خصومهم الصقالبة (السلافيين) (Slauophiles)، الذين يرون أن روسيا عالم بذاته يجب أن لا تكون مشابهة للغرب، ومن الأحسن العودة الى الحياة قبل اصلاحات بطرس الكبير، فأيدوا الموسكوفية، وراهنوا على المشاعة الفلاحية والتعاونية لانقاذ روسيا من صراع الطبقات[5]

ومهما كان من أمر هذين التيارين، فان هناك بعض النقاط المشتركة بينهما، من ذلك مثلا معاداتهم للاستبدادية (الحكم المطلق)، والبيروقراطية القائمة آنذاك في روسيا[6]. بالإضافة الى اعتبار روسيا بلاد أوروبية ولها رسالة تؤديها في أوروبا[7].

(1) بطرس الكبير. قيصر روسيا (1682 ـ 1725)، امتاز ببطولته واصلاحاته الادارية والعسكرية والاجتماعية والثقافية.

(2) من أهم شخصيات هذين التيارين: أولا، المتغربون ويمثلهم كل من «هرزن Herzen و«بيلنسكي Biélinski» و«غرانوفسكي Granovski ثانيا، السلافيون، ويمثلهم كيرييفسكي I. Kiriéevski» و«خومياكوف » و«اكساكوف ».

(3) بطرسبورغ، اسم المدينة التي أسسها بطرس الكبير عام 1703، وجعل منها نافذة مفتوحة على أوروبا.

(4) Pierre Pascal, *Histoire de la Russie des Origines à 1917* 8e edition, PUF, 1976, p. 91.

(5) Ibid. (6) Ibid.)7(P. Kovalevsky, Op. cit, p. 10.

وفي أواخر القرن 19 وبداية القرن 20 م، الذي كان عهد ازدهار للدراسات التاريخية في روسيا استطاع المؤرخ «كليوتشيفسكي» (V.O. Klioutchevsky) (1834 ـ 1911)، الذي كان يدرس بجامعة موسكو بأن يؤسس بها مدرسة تاريخية لامعة، أصبح له فيها كثير من التلاميذ والمريدين[1]، وعندما قام كليوتشيفسكي بنشر عمله «دروس في تاريخ روسيا» في أربعة مجلدات سنة 1904، كان لهذا العمل تأثير كبير على المؤرخين الروسيين الذين كانوا يكرسون كل جهودهم لتاريخ روسيا، فأصبحوا عندئذ يهتمون بدراسة القرنين 16 م و17 م، اللذان يمثلان عهد القيصرية الموسكوفية. وكذلك درسوا القرن 18. كما اهتموا بعهد الامبراطورية الروسية، ووجهوا أبحاثهم بنوع خاص نحو التاريخ الاجتماعي والزراعي والاداري والمالي[2].

ان تأثير كليوتشيفسكي وصل حتى الى المؤرخين الماركسيين أمثال الاستاذين «رويكوف» (N. Rojkov) و«ميخائيل بوكروفسكي[3] M. Pokrovsky ، هذا الأخير الذي هو موضوع دراستنا، لم يأخذ بجميع اراء كليوتشيفسكي ، كما لم يكن يتفق مع الاتجاه المتغرب وأصحابه بل كان اتجاهه اتجاها سياسيا ماركسيا.

وقبل الانتهاء من هذا الحديث المقتضب عن المدارس التاريخية في روسيا ، تجدر الملاحظة أنه بعد قيام الثورة الاشتراكية عام 1917، ظهر اتجاه تاريخي ثالث، بجانب تياري المتغربين والسلافيين المذكورين، في روسيا السوفياتية، وهو المعروف باتجاه الاوراسيين (Eurasistes)، وأصحاب هذا الاتجاه، كانوا يشددون على العلاقات بين روسيا وآسيا واعتبروا روسيا جزءا من آسيا جغرافيا وتاريخيا، وأكدوا على أن التركيز على أوروبا ـ أو بما اصطلحوا عليه بمركزية أوروبا (Europocentrisme) ـ هو مبدأ مزيّف وكاذب[4]، أي تركيز الاهتمام على

(1) من تلاميذ كليوتشيفسكي ومريديه ، الذين استأنفوا مسيرته، والذين ينتمون الى الجيل الأخير من المؤرخين ما قبل الثورة نذكر «بول ميليوكوف P. Milioukov 1859 ـ 1943 م. و«الكسندر كيزيفتر A.Kizevetter 1866 ـ 1933، و«ليوبافسكي Lioubavsky » 1860 ـ 1935، و«ميشيل بوغوسلوفسكي m. Bogoslovsky 1867 ـ 1929، و«بينواميا كوتين B. Miakotine 1867 ـ 1937، وأخيرا «ميشال دياكونوف m. Diakonov 1856 ـ 1920.

(2) J.J. Gapanovitch, op. cit., p. 32.

(3) Ibid.

(4) Kovalevsky, p. 11.

التغيرات داخل المجتمع الأوروبي.

أيضا نشير، أنه في الفترة التي تلت ثورة 1917 ، تم انشاء منظمة جديدة للدراسات التاريخية، وذلك بعد الغاء المنظمات التاريخية القديمة وعلى رأسها «جمعية موسكو للتاريخ» (La société d'histoire et des antiquités Russes de Moscou)) التي أسست عام 1804 م. ضمت المنظمة الجديدة في بداية أمرها المؤرخين القدامى والمؤرخين (الماركسيين) الجدد على السواء. وسرعان ما طغى أعضاء المدرسة الماركسية على المنظمة. وأصبحت الدراسات التاريخية منذ هذا الوقت تسير وفق وجهة نظر ماركسية. فضلا عن ذلك كان موضوع هذه الدراسات نفسها قد تغير. وأصبحت الأحداث القريبة من الثورة أو التي تمس تاريخ الحزب الشيوعي هي الوحيدة التي تستحق البحث والدراسة[1].

فلا غرابة اذن أن يكون «بوكروفسكي» صاحب المدرسة الماركسية في عهد ما بعد الثورة، وهو الشخصية الوحيدة المقبولة في الاتحاد السوفييتي حتى عام 1934 م.

حياة بوكروفسكي :

اسمه الكامل هو ميخائيل نيكولاي بوكروفسكي (M. N. Pokrovsky) ولد في 29 أوت 1868. ويعتبر من المؤرخين السوفييت البارزين. أنهى دراسته العليا بمعهد اللغة بموسكو عام 1891 م. امتهن بوكروفسكي الصحافة، حيث عمل بمجلة البرافدا (Pravda) الماركسية وعمل أيضا محررا في مجلة (باربا» (Barba) البلشفية التي تعني «الكفاح». وأخيرا كان رئيسا لاحدى الصحف الثورية المعروفة بـ «الكولوكول Kolokol »[2].

كان بوكروفسكي متحمسا كثيرا الى الأفكار الثورية الماركسية. لذلك نجده يشارك في كثير من الانتفاضات التي قامت في كبريات مدن روسيا القيصرية مثل انتفاضة 1905 بموسكو. كما أضطر بوكروفسكي أن يهاجر الى العديد من بلدان أوروبا الغربية، بسبب مواقفه الثورية. من بين دول أوروبا التي زارها: سويسرا التي التقى فيها بـ «اليتش فلاديمير لينين» في صائفة عام 1905 وفنلندا عام 1907 وفرنسا عام 1909. وفي عام 1917 عاد الى بلاده ليشارك في الثورة البلشفية[3].

(1) Gapanovitch, p. 57.
(2) La grande Encyclopedie Soviétique (en langue Russe), Moscou, Editions Encyclopédie Soviétique, 1975. (3)Ibid.

أيضا يلاحظ أن بوكروفسكي قد تولى عدة مناصب سياسية وعلمية. سواء قبل الثورة أو بعدها. من ذلك أنه كان سنة 1905 ممثلا للحزب الشيوعي. كما كان ممثلا لبعض دورات «حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي (البلشفي)». وأصبح موظفا في الحكومة بعد الثورة. اذ ابتداء من عام 1918 الى وفاته كان يتولى منصب «وكيل وزير التربية»[1]. وبالتالي اسندت اليه جميع الأمور التي تتعلق بالناحية الثقافية. وأصبح المشرف الفعلي عليها. وفي سنة 1929، أصبح بوكروفسكي أكاديميا، وعضوا في المجمع العلمي بموسكو.

أعماله وأثاره:

قام بوكروفسكي بتأليف ونشر العديد من الكتب والمؤلفات الى جانب بعض الأعمال الخاصة. وقد بدأ صدور هذه المؤلفات والكتب ابتداء من عام 1907 . تطرق بعضها الى تاريخ الشعب الروسي، والى السياسة الاستعمارية التي كانت تنتهجها القيصرية في الداخل والخارج يضاف الى ذلك انتقاد المؤلف لكبار الاقطاعيين والملاكين والبرجوازية.

كان أول ما صدر لوكروفسكي في سنة 1907 كتاب في تسعة مجلدات نشر تحت أشرافه بعنوان «تاريخ القرن التاسع عشر».

وبلي

وبين سنوات 1910 ـ 1913 صدر له بموسكو كتاب «روسيا منذ القديم» في خمسة أجزاء.

وفي السنوات الأولى من الحرب الأهلية، حين كان رئيسا لأشغال «ملتقى الأدب البلشفي» قام باعادة نشر أعمال «لينين» بعنوان «الامبريالية أعلى مراحل الرأسمالية».

وفي السنوات الواقعة بين 1915 ـ 1918، نشرت له دراسة حول «تاريخ روسيا الثقافي».

ان مثل هذه الأعمال، نجدها قد لعبت دورا حاسما أثناء تطور الثورة الاشتراكية خاصة منها «العروض الموجزة لتاريخ روسيا» التي كان بوكروفسكي يوليها اهتماما كبيرا. وفي هذا الاطار نذكر كتابه «موجز تاريخ روسيا» الذي يعد من بين

الأعمال التاريخية الأولى التي كتبت على أساس التفسير الاجتماعي الماركسي. وكان الهدف من وراء هذا النوع من العروض الموجزة ـ حسب رأي بوكروفسكي ـ انها بمثابة «سلاح ايديولوجي موجه الى مناضلي الثورة لتعريفهم بالعلاقة التي تربط بين الماضي الروسي والمعنى التاريخي لكفاحهم الراهن»[1].

ومما تجدر الاشارة اليه هنا، ان تاريخ روسيا (الموجز) لبوكروفسكي قد نشر في أربعة مجلدات بموسكو سنة 1924. وأعيد طبعه عدة مرات في روسيا السوفييتية. وبقي لاكثر من عشر سنوات النسخة الرسمية الجديدة والوحيدة التي تدرس في كامل جامعات الاتحاد السوفييتي[2].

قسم بوكروفسكي مؤلفه هذا الى أربعة أقسام: القسمان الأولان تناول فيهما تاريخ روسيا حتى عام 1905 ، بينما القسمان الثالث والرابع عالج فيهما الحوادث الأخيرة التي تلت سنة 1905 م. وهكذا يكون ماضي روسيا قد اختصره اختصارا شديدا، فالقرون الأولى من التاريخ الروسي رواها بشكل سطحي، وتحدث عن أصل السلاف الشرقيين بالطريقة التقليدية، دون أن يحاول ـ حسب ما جاء في كتاب كابانوفيتش (Gapanovitch) ـ الاستفادة بالأبحاث الأثرية التي تمت حديثا في السهل الروسي، مثل أبحاث «تلغرن Tallgren »[3]، وغيرها من الأبحاث الأخرى التي لا تقل عنها أهمية.

ثم تعرض بوكروفسكي الى عهد الاقطاع في روسيا ، الذي حدده بين القرنين الرابع عشر 14 م والسادس عشر 16. موضحا بأن مشكل الاقطاع هو من القضايا التي ما زال فيها تشكيك ونزاع ومجادلة عن صحة تاريخه. والجدير بالذكر هنا، ان هذه الأطروحة رفضها أغلب المؤرخين الروسيين، باعتبار ان القنانة التي تميزت بها الاقطاعية في غرب أوروبا لم توجد في روسيا في عهدها الاقطاعي. على الرغم من وجود تشابهات أخرى بين النظامين في كل من روسيا وغرب أوروبا، وهذا دليل على خصوصية عملية التطور التاريخي في روسيا[4].

كما تعرض بوكروفسكي الى الرأسمالية التجارية التي ساهمت ـ حسب رأيه ـ في

(1) Centre de recherche sur l'URSS et les pays de l'Est , annuaire de l'URSS, ed. CNRS, par 1968, p. 937.
(2) Kovalevsky, p. 12.
(3) Gapanovitch, p. 96.
(4) Ibid

تفكك الاقطاعية، ونمو الرأسمالية. وبالتالي أدت الى تكوين القنانة[1].

وتعرض بوكروفسكي الى عهد «نيقولا الأول»[2]، الذي كان حسب رأيه أيضا ـ نموذجا لمنظمة رأسمالية صناعية. كما كشف ـ أي بوكروفسكي ـ عن شيء آخر في هذا العهد، وهو انشاء المدارس التقنية، التي كانت الصناعة المتنامية بحاجة اليها. وكذا الصراع من أجل الأسواق الشرقية والسوق الداخلية، التي بقدر ما تدوم القنانة بقدر ما تكون السوق اكثر ضيقا. وبسبب ذلك كانت حروب مع تركيا وفارس، وتنافس مع انجلترا[3].

وبعد الكلام عن المظهر الاقتصادي للامبراطورية الروسية يصف بوكروفسكي الحركة الثورية في هذا المجال الفرق بين الثورة التي قام بها البرجوازيون، وثورة الشعبيين (النارودنيك)[4]، فالأولى ـ حسب رأيه ـ كانت بسبب نمو الرأسمالية الصناعية، التي تعارض ممارسة القنانة، وبلغت هذه الثورة أوجها في انتفاضة الديسمبريين[5]. أما المرحلة التالية من الحركة الثورية فهي ثورة «الشعبيين». فقد استمدت اصولها من مصدر آخر اذ خرجت من صفوف البرجوازية الصغيرة، وكان من عناصرها الطلائعيين «لافروف»[6] الذي كانت نظرته للعالم اجتماعية، وأفكاره أفكارا اشتراكية.

ان الفكرة التي كانت تمثل النقطة الأساسية في ايديولوجية الشعبيين، هي ان

(1) Ibid, p. 97

(2) نيقولا الأول: قيصر روسيا 1825 ـ 1855، انتزع ايريفان (Érivan) من ايران عام 1828 م. ساند تركيا ضد مصر. توفي قبل انتهاء حرب القوم. غلب في محاربة تركيا وحلفائها الفرنسيين والانجليز في القرم، 1854 ـ 1856 م.

(3) Gapanovitch p. 97

(4) النارودنيك (أو الشعبية)، تيار برجوازي صغير فلاحي في الحركة الثورية ، نشأت في الستينات والسبعينات من القرن 19. وكان الشعبيون يسعون الى تصفية الأوتوقراطية وتسليم أراضي الملاكين العقاريين الى الفلاحين. واعتبروا ان القوة الثورية الرئيسية هم الفلاحون ورأوا في المشاعة الفلاحية الريفية جنين الاشتراكية، من عناصر هذا التيار الطلائعيين: لافروف.

(5) الديسمبريون: نبلاء روس ثوريون ، ناضلوا ضد القنانة والأوتوقراطية، قاموا بانتفاضة مسلحة في 14 كانون الأول ـ ديسمبر 1825 م.

(6) لافروف (بيوتر) عاش من 1823 الى 1900 م، وهو عالم من علماء الاجتماع وكاتب سياسي روسي يعد أحد مفكري الشعبية الثورية الى جانب هرتسن وباكونين، وتشيرنيشيفسكي.

«الفرد يجب أن يفكر تفكيرا نقديا». وتوافق سياستهم الداعية الى الاكثار من عدد هذا النوع من الافراد الناقدين، والتقليل من عدد خصومهم غير الناقدين. وهذا لا يتم الا عن طريق الارهاب ضد موظفي الحكومة، الذي يعد أحد ميزة الشعبيين.

يفهم من تحليل بوكروفسكي هذا انه لم يكن هناك ثوار حقيقيون. ولم يظهروا الا مع الحركة العمالية في بداية القرن العشرين. وهكذا بدأت ثورة العمال التي لم تكن انتهت بعد. هذه الثورة التي كانت موضوع النصف الثاني من كتاب بوكروفسكي ، الذي كتبها وحللها بناء على التفسير الاقتصادي للتاريخ [1]. وبالتالي تكون هذه «الفترة التاريخية» قد اتخذت شكل مذكرات عاصر صاحبها أحداثها وعايشها.

هذا وقد خصص بوكروفسكي صفحات مهمة ـ في مؤلفه المذكور ـ للحدث الذي عجل بقيام الثورة والمتمثل في اندلاع الحرب العالمية الأولى. وهنا حمّل بوكروفسكي روسيا مسؤولية الحرب، وليس ألمانيا. وكان يرى بأن الأولى ـ أي روسيا ـ كانت قد حضرت نفسها للحرب منذ زمن طويل. كما ارجع مقتل ولي عهد النمسا «الارشيدوق فرانسوا فرديناند» الى روسيا ايضا. ويواصل بوكروفسكي كلامه فيقول: بأن الأساس الاقتصادي للعدوان الروسي كان نتيجة تطور رأسمال روسيا الصناعي [2].

في الواقع ان أهمية كتاب بوكروفسكي، لا تكمن في وجهة نظره الماركسية فحسب ، بل في محتواه أيضا. ففي احدى الفصول التي تخص تطور التاريخ في روسيا، نجد بوكروفسكي قد عبر فعلا عن نظرات واسعة في هذا الموضوع اذ قال: «انه قبل المؤرخين الماركسيين كان التاريخ الروسي يعبر عن الفكرة التي تقول بأن الدولة هي القوة المركزية للتأريخ. (l'Etat Force Centrale de l'Histoire)، ويأخذ بوكروفسكي كمثال لذلك كارامزين ((Karamzine)) أحد المؤرخين الروسيين المتميزين في القرن 19، والذي عاش عهد القنانة. وكانت الدولة في نظره ـ اي كارامزين ـ شيا ثابتا ودائما لا يتغير. وكان محافظا في أفكاره التاريخية ويتابع بوكروفسكي كلامه فيقول: بينما نجد المؤرخين الذين أتوا بعد كارامزين وعلى رأسهم «سولوفييف»، حيث تحث تأثير الرأسمالية الصناعية النامية، تبنوا وجهة النظر

(1) Capanovitch, p. 18.
(2) Gapanovitch, p. 100.

الهيجلية، معتبرين الدولة الروسية خاضعة للتطور والتقدم» [1]. أي عكس رأي كارامزين السابق الذكر. ثم يعقب بوكروفسكي عن هؤلاء بقوله: «طبيعيا أن مبدأ الصراع الاجتماعي (صراع الطبقات) الذي وضعه هؤلاء في الدرجة الثانية، في تفسير أحداث التاريخ يعود الى جهلهم به. والواقع أنهم اتبعوا العكس اذ ألحوا على تضامن الطبقات خصوصا عند توقع خطر الحرب» [2].

يتابع بوكروفسكي كلامه مشيرا، بأن البحث العلمي في تاريخ ر روسيا كان قد تضافر مع البحث الفلسفي. وضرب على ذلك مثلا بحركة المتغربين والسلافيين، بالإضافة الى الذين تابعوا مسيرة سولوفييف (أمثال غرادوفسكي وتشيتشرين Tchitchérine وكليوتشيفسكي)، انهم في تفسيرهم للأسباب الموضوعية لتطور الدولة الروسية، قد ساعدوا جميعهم فكرة الدولة البرجوازية الحديثة، فهم اذن متغربون. بينما السلافيون اعتبرهم بوكروفسكي كممثلين للبرجوازية الضغيرة [3]، المقابلة للرأسمالية الصناعية في عهد نيقولا الأول، وقد اتخذ هؤلاء السلافيون من موسكو القديمة المثال الذي يحتذى به.

هذا وكان تقدير بوكروفسكي النهائي لمجموع أعمال المؤرخين الروسيين السابقين ، يعبّر في معظمه عن مجموعة من المواد، يمكن أن تكون في بعض الأحيان مجدية ونافعة لمورخ ماركسي.

وطبقا لمفهومه ، فان تاريخ روسيا يجب أن يتطور بنفس الكيفية التي تطور بها تاريخ أوروبا، ويتناسب مع النسق الماركسي العام [4]...

وهكذا نرى بأن بوكروفسكي، قد بنى كل أعماله وكتاباته على أساس العلم الاجتماعي الماركسي، وعلى مادية ماركس الاقتصادية، هذه النظرية المادية ، التي لا تعترف الا بالمادة وحدها كواقع وحيد. وفي هذا الصدد ، كثيرا ما أوضح بوكروفسكي بأن التطور التاريخي لاي دولة من دول العالم ـ بما فيها روسيا ـ أساسه التطورات التدريجية للاقتصاد [5]. كذلك يلاحظ بأن تطور المادية التاريخية لكل

(1) Ibid, p. 93. (2) Ibid.
(3) استخدام بوكروفسكي لعبارة «البرجوازية الصغيرة» يدل على مدى تعاطف المؤلف وميله الى التيار السلافي أكثر من ميله الى التيار المتغرب.
(4) Gapanovitch, p. 94.
(5) La Grande Encyclopedie Soviétique.

العلوم الاجتماعية الماركسية في العشرينات من هذا القرن، قد وضعت تحت شعار ، الكفاح ضد الفلسفة البرجوازية للتاريخ[1] . وبهذا يكون بوكروفسكي، قد حاول التوفيق بين الولاء السياسي، وبين النظرية التاريخية الماركسية الصحيحة.

خلاف بوكروفسكي مع بعض المؤرخين:

من بين المؤلفات التاريخية الروسية الهامة التي ظهرت في العشرينات من هذا القرن كتاب: «أوروبا في عهد الامبريالية من 1871 الى 1919» لصاحبه «تارل E. V. Tarle » وقد ظهرت طبعته الأولى سنة 1927 م.

وتارل هذا، ينتمي الى جيل المؤرخين الروسيين الثالث، الذين كرسوا كتاباتهم وأعمالهم ليس للأحداث التي جرت في بلادهم وانما للاحداث التي جرت في أوروبا الغربية.

بدأت هجومات بوكروفسكي ضد تارل منذ ظهور الطبعة الأولى لكتابه سنة 1927. وفي الطبعة الثانية التي صدرت سنة 1928 استمر تارل في التعاطف مع دول الوفاق «L'Entente» وانتقد بشدة صلح «برست ليتوفسك BREST-Litovsk»، الذي تم توقيع معاهدته بين الحكومة الثورية في روسيا والحكومة الالمانية سنة 1918 ـ متهما اياه ـ أي الصلح ـ بأنه كان يمثل سابقة لاتفاقية فرساي سنة 1919 م الجائرة[2]. هذه المواقف وغيرها، الصادرة من تارل أحدثت رد فعل عنيف لدى المؤرخين البلاشفة ومن بينهم بوكروفسكي.

غير ان هجومات بوكروفسكي ـ في الحقيقة ـ تعلقت خاصة بالقضايا التأريخية. حيث أن كل تقاليد «التاريخ العام» مثل التي ظهرت في روسيا منذ عهد

(1) Annuaire de l'URSS, op. cit., p. 136.

(2) فعلا يوجد تشابه كبير بين معاهدة «برست ليتوفسك» واتفاقية فرساي» حول كيفية تطبيق مبدأ حق الشعوب في تقرير مصيرها. سواء كانت هذه الشعوب في المناطق الروسية المحتلة من طرف الالمان أثناء الحرب. أو الشعوب المغلوبة على أمرها في المناطق الأخرى من العالم عند نهاية الحرب. حيث كانت الجهات الواقعة في مركز قوة الالمان في أول الأمر، ثم الحلفاء بعد ذلك. لا تعارض حق شعوب المناطق المحتلة في تقرير المصير. الا انها كانت ترى بضرورة اجراء الاستفتاء حول هذا المبدأ في ظل الاحتلال العسكري. وهي تريد بذلك ـ طبعا ـ ضم أراضي هذه المناطق اليها لاستعباد شعوبها واستغلالها.

«فرانوفسكي[1]»، كانت موضع بحث من جديد. ووصل النقاش بين الماركسيين والمتغربين الى أوجه عندما أصبح هناك تساؤل عما اذا كانت هذه التقاليد ـ وهي الاهتمام بتاريخ الغرب دون الاهتمام بتاريخ روسيا ـ تستطيع الاستمرار في الحياة والتطور بالاتحاد السوفييتي؟[2].

وفي معرض الحديث عن «بتروسفسكي Petrusevsky » كان بوكروفسكي قد لاحظ ـ في الكراسة (Fascicule) رقم 8، من مجلة المؤرخ الماركسي Historik Marksist) العام 1928 ـ البون الشاسع بين المؤرخين الروسيين أمثال «برسنجاكوف Presnjakov » الذين كانت لهم اتجاهات ماركسية قوية، وبين المؤرخين الذين درسوا تاريخ الغرب والذين لم تكن لهم اتجاهات ماركسية. وبالعكس حاول هؤلاء الاحتفاظ بالروابط مع الماضي ومع المناهج الغربية. ان المدرسة القديمة ـ يواصل بوكروفسكي ـ كانت لا تريد التنازل والتخلي عن تراثها. ويختم بوكروفسكي كلامه بالقول: «ان كل ذلك يكون طبيعيا ، لو اننا قمنا بثورة ديمقراطية تضمن «حرية الصحافة» من أجل الماركسية (المسالمة والمتبعة)، ولكن الذي حدث عندنا هو ثورة اشتراكية، وان ايديولوجية الطبقة العاملة التي عندنا هي سيدة الامر[3] ثم ان الكلام على الصراع الطبقي مثل «تارل» غير كافي ليصبح المرء ماركسيا. والواجب هو قبل الخلاصة الماركسية وهي: «حتمية الثورة الاشتراكية»[4]. ان حكم تارل التشاؤمي على الطبقة العاملة قبل الحرب ومفهومه للمكانة التي كانت تحتلها الاشتراكية في تاريخ عهد الامبريالية قد كان خاطئا.

وهكذا نرى ان بوكروفسكي قد أصاب تارل في الصميم. وذلك بعد أن أوضح له بأن القبول ببعض النظريات الماركسية دون اقتناعات سياسية وايديولوجية ، بالإضافة الى عدم التوازن بين الأعمال والنظريات هي التي جعلته ـ أي تارل ـ

(1) يعتبر «غارنوفسكي» أول روسي انطلق في دراسة التاريخ الغربي وأعطى مثالا في البحث والدراسة. وقد توجه الى الغرب سنة 1836 من أجل الدراسة والاستعداد ليكون استاذا في مادة «التاريخ العام» أي تاريخ أوروبا الغربية بجامعة موسكو.

(2) Franco Venturi, Historiens du XXe siècle. Genéve, Librairie Droz , 1966, p. 130.

(3) Ibid.

(4) Venturi, p. 130.

عرضة للنقد الجارح.

أما في الكراسة رقم 21 من مجلة المؤرخ الماركسي لعام 1931. فقد شرح بوكروفسكي كيف تم العمل من أجل وضع تعليماته (الماركسية) موضع التنفيذ: «توجب علينا لبناء الشيوعية أن يساعدنا غير الشيوعيين. وكان من بين شروط النجاح حل القضية، وذلك عن طريق معرفة ما اذا كانت أيدي هؤلاء ـ أي غير الشيوعيين ـ ظاهرة أم لا؟ وأيضا كانت المهمة الأولى «لجمعية المؤرخين الماركسيين» هي توحيد العمل التطبيقي والنظري. لاجل ذلك، كان التحق من ايديولوجية مؤرخينا الاختصاصيين الذين ورثناهم من روسيا البرجوازية أمثال «بتروسفسكي» (Petrusevsky) وتارل وباشريزين (Bachrusin) وغيرهم. فقد نشروا سلسلة من المؤلفات التي لا تختلف عن اعلانات مبدئية. تلك الاعلانات التي سمحت لنا بمعرفة عقليتهم... ورأينا أنه في جميع الحالات، لا يمكن بناء الشيوعية بتعاونهم معنا»[1].

بعض الانتقادات التي وجهت الى بوكروفسكي:

على الرغم من أن بوكروفسكي حاول في السنوات الأخيرة من حياته اعادة تصحيح بعض وجهات نظره. ومن بينها تغيير نظرته المبالغ فيها حول دور الرأسمالية التجارية في تكوين الرأسمالية وتأثيرها الحاسم على السياسة الداخلية والخارجية للدولة. كما أعاد تصحيح نظرته الخاطئة حول الثورة البرجوازية الديمقراطية وعناصرها، التي كان يعتبرها في أول الأمر، البداية الحقيقية للثورة الاجتماعية. رغم كل هذا كانت أخطاء بوكروفسكي ـ في الحقيقة شؤما وعائقا في تطور العلوم التاريخية السوفييتية. فقد أدى ذلك الى أن توجّه اليه انتقادات من طرف الحزب وذلك من خلال قراراته ووثائقه التي أصدرها في هذا الشأن. وكذلك وجهت اليه انتقادات من طرف مؤرخين سوفييتين.

كان بوكروفسكي، رجل حزب، وهدفه هو تمجيد الثورة الشيوعية، والحط مما سواها من القوى الأخرى، التي كان لها دور بارز في تاريخ روسيا. لقد أفرغ بوكروفسكي بموقفه[2] هذا تاريخ روسيا من محتواه النابض بالحياة البشرية

(1) Ibid., p. 131.

(2) يمكن وصف هذا الموقف، بأنه بعيد عن الموضوعية والروح العلمية.

والتقليدية، وأهمل الانفعالات والاحاسيس، وتأثير الشخصيات العظيمة في التاريخ الروسي. بالاضافة الى اهماله للردود الوطنية في أوقات تهديد الغزو الخارجي. لهذه الأسباب وغيرها، تعرض بوكروفسكي ـ بعد وفاته ـ سنة 1932 ـ لحركة تطهير واسعة، بأمر من جوزيف ستالين (J. Staline) حيث شملت شخصيته ومؤلفاته، وكل آثاره التي كانت موجودة بـ «المعهد الماركسي للتاريخ» الذي كان بوكروفسكي مديره.

ان ما يمكن فهمه بعد هذا الاجراء القاسي نحو بوكروفسكي، هو ان المفاهيم التاريخية لبوكروفسكي المطابقة للمفاهيم الارثوذكسية الماركسية، لم تعد تتلاءم مع المتطلبات السياسية آنذاك، ومع الخط العام للحزب[2]، والى جانب ذلك، فان بوكروفسكي فشل في فهم الدور النشيط للبنيات العليا في المجتمع، والدور الخلاق للجماهير، والأفراد، والأشخاص في التاريخ.

بعد عملية التطهير التي مسّت شخصية بوكروفسكي وأعماله ومؤلفاته التي تمّ حظرها ومنعها. أمر ستالين بكتابة تاريخ روسي جديد. يقوم على «التمجيد القومي» بدل التاريخ الذي كتبه وتصوره بوكروفسكي. والذي لا يمجد القومية. لذلك أصدر الحزب أمرا. دعا فيه باصلاح جذري لتعليم التاريخ في المؤسسات التعليمية. ونتيجة هذا القرار الحزبي. ظهر في عام 1936 أول كتاب وجيز لصاحبه «شستاكو Chestako »، الذي عكس فيه التوجهات التاريخية الجديدة. التي كان قد أوصى بها ستالين في احدى رسائله. ثم تبعه كتاب مدرسي نشر تحت اشراف «بانكراتوفا A. Pankratova وكتاب جامعي من تأليف الاساتذة: باخروشين (Bakhrouchine) و غريكوف Grekov) وليبيداف lebedev ونتشكينا Netchkina)[3].

أما أكاديمية العلوم في الاتحاد السوفييتي. فقد بدأت منذ عام 1939 في نشر تاريخ من 12 مجلدا. ومنذ هذا التاريخ ظهرت أعمال كثيرة في هذا المجال.

أما من المؤرخين السوفييت الذين وجهوا انتقادات الى بوكروفسكي واعابوا

(2) Gapanovitch, p. 108.
(3) Kovalevsky, p. 13.

عليه طريقته ومنهجيته في كتابة التاريخ، الأكاديمي «دروزينين N.M. Druzinin» الذي يعد من بين الممثلين الكبار للعلم التاريخي السوفييتي. فقد قال عنه: «كان بين يدي المثال السلبي لنشاط بوكروفسكي العلمي، الذي بناه على تصورات واسعة ذات أحكام واراء مسبقة، دون أن يحاول تكليف نفسه بتحليل كل المصادر الأساسية تحليلا منظما. ومن سوء الحظ ان هذا المنهج الذي وجد في عهد بوكروفسكي، ما زال يصادف الى اليوم في أكثر من مصنف تاريخي.» وينهي دروزينين قوله بـ «ان بحثا تاريخيا مقبولا، لا يمكن أن ينتج الا عن جهد شخصي دؤوب ومستمر. فالأحداث، والأحداث فقط، التي تم فحصها ومقارنتها وربطها عضويا ببعضها البعض، هي التي تنتهي بخلاصة ثريّة وقويّة[1].

غير أنه ابتداء من عام 1956 م، أعيد الاعتبار الى بوكروفسكي بعد أن أصبح ستالين نفسه موضع الانتقاد والتطهير، لانه أقام حكمه على عبادة الشخص الواحد. وهي الفكرة التي عمل بوكروفسكي على محاربتها أثناء كتاباته التاريخية. وهكذا أخذ اسم بوكروفسكي يعود الى الظهور في الصحف، وأعيد لصاحبه الاعتبار.

---

(1) Venturi, op. cit., p. 187.

القسم الثاني

عرض قضايا تاريخية وأطروحات جامعية :